رويّ العين

كان تسليمه وداعاً

أول شعر نظمه ارتجالاً قوله وهو صبي:

[الخفيف]

بِـأَبِـي مَـنْ وَدِدْتُـهُ فَـافْـتَـرَقْـنَـا
وَقَـضَـى ٱللَّـهُ بَـعْـدَ ذَاكَ ٱجْـتِـمَـاعَـا[١]
فَـافـتَـرَقْـنَـا حَـوْلاً فَـلَـمَّـا الْـتَـقَـيْـنَـا
كَـانَ تَـسْـلِـيـمُـهُ عَـلَـيَّ وَدَاعَـا[٢]

فتى رأيه ألف جزء

وقال في صباه يمدح علي بن أحمد الطائي:

[الطويل]

حُـشَـاشَـةُ نَـفْـسٍ وَدَّعَـتْ يَـوْمَ وَدَّعُـوا
فَـلَـمْ أَدْرِ أَيَّ الـظَّـاعِـنَـيْـنِ أُشَـيِّـعُ[٣]
أَشَـارُوا بِـتَـسْـلِـيـمٍ فَـجُـدْنَـا بِـأَنْـفُـسٍ
تَـسِـيـلُ مِـنَ الآمَـاقِ والـسَّـمُّ أَدْمُـعُ[٤]

---

(١) و (٢) بأبي: هذه الباء باء التعدية. وددته: أحببته. يُعلن الشاعر أنه على استعداد للتخلي عن أبيه لقاء عودة من أحبّه، وقد أجاب اللّه تعالى رجاءه فعاد بعد فراق دام سنة وسرعان ما كان تسليم ليكون إيذاناً بوداع آخر، وقد يكون وداعاً أبدياً، حيث لا لقاء.

(٣) الحشاشة: بقية الروح في المريض. الظاعنين: المرتحلين. أشيّع: أرافق المسافرين لوداعهم. اجتمعت للشاعر مصيبتان: حشاشة التي ودّعته وهو مدنف مريض، والظاعنون وقد اصطحبوا معهم حبيبته، ممّا انتابه إحساس بالضياع والحيرة.

(٤) الآماق، واحدتها مأق: جانب العين ممّا يلي الأنف. السمّ: لغة في الاسم. كان =

حَشَايَ عَلَى جَمْرٍ ذَكِيٍّ مِنَ الهَوَى
وَعَيْنَايَ في رَوْضٍ مِنَ ٱلْحُسْنِ تَرْتَعُ[١]
وَلَو حُمِّلَتْ صُمُّ ٱلْجِبَالِ الَّذِي بِنَا
غَدَاةَ افْتَرَقْنَا أَوْشَكَتْ تَتَصَدَّعُ[٢]
بِمَا بَيْنَ جَنْبَيَّ الَّتِي خَاضَ طَيْفُهَا
إِلَيَّ الدَّيَاجِي وَالْخَلِيُّونَ هُجَّعُ[٣]
أَتَتْ زَائِراً مَا خَامَرَ الطِّيبُ ثَوْبَهَا
وكَالمِسْكِ مِنْ أَرْدَانِهَا يَتَضَوَّعُ[٤]
فَمَا جَلَسَتْ حَتّى انْثَنَتْ تُوسِعُ الْخُطَا
كَفَاطِمَةٍ عَنْ دَرِّهَا قَبْلَ تُرْضِعُ[٥]

= الوداع مُؤلماً؛ فالركب المودّعون يُشيرون بأيديهم مودّعين فإذا بدموع الشاعر تنهمر معبّرة عن آلام النفس والروح التي تتّخذ شكل الدموع.

(١) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ١٢٠، خزانة الأدب، للبغدادي ٣: ٣٧٦. يقصد الشاعر بالحشا قلبه، ومعناه أصلاً: ما في داخل جوف الإنسان. ذكيّ: اشتعال النيران. يصف الشاعر حالته الوجدانية؛ فقلبه ملتهب لشدّة حبّه، وعيناه مسمّرتان في وجه حبيبته تعبّان من مفاتن جمالٍ يأسر القلوب.

(٢) الصمّ: الصلبة. تتصدّع: تتحطّم. ولشدّة هموم الشاعر فإن الجبال الرواسي التي جُبلت من صوان تكاد تندك وتتفتت غداة افتراقه عن حبيبته.

(٣) الدياجي: الظلمات. الخليون: هم من خلت قلوبهم من الحبّ وهمومه. هجّع: نائمون. إن الشاعر مستعدّ لتقديم الفداء لمن يحبّ وقد زاره طيفها، وهو في هجعة خاطفة، بينما من خلت قلوبهم من الحبّ وعذاباته يغطّون غطيط من لا همّ له.

(٤) خامر: مازج، خالط. الأردان، الواحد ردن: أصل الكم. يتضوّع: ينتشر. جاءت حبيبة الشاعر زائرة، والعطر يفوح من ثوبها، وهي في الأصل لم تتطيّب، ذلك أنها خُلقت طيّبة النشر.

(٥) الدرّ: اللبن. سرعان ما رحلت بعدما جلست كأنها امرأة مرضع تودّ إرضاع وليدها.

فَشَرَّدَ إِعْظَامِي لَهَا مَا أَتَى بِهَا
مِنَ النَّوْمِ وَالْتَاعَ الْمُفَجَّعُ[١]
فَيَا لَيْلَةً مَا كَانَ أَطْوَلَ بِتُّهَا
وَسُمُّ الأَفَاعِي عَذْبُ مَا أَتَجَرَّعُ[٢]
تَذَلَّلْ لَهَا وَاخْضَعْ عَلَى الْقُرْبِ وَالنَّوَى
فَمَا عَاشِقٌ مَنْ لَا يَذِلُّ وَيَخْضَعُ[٣]
وَلَا ثَوْبُ مَجْدٍ غَيْرَ ثَوْبِ ابْنِ أَحْمَدٍ
عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِلُؤْمٍ مُرَقَّعُ[٤]
وَإِنَّ الَّذِي حَابَى جَدِيلَةَ طَيِّءٍ
بِهِ اللَّهُ يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ[٥]
بِذِي كَرَمٍ مَا مَرَّ يَوْمٌ وَشَمْسُهُ
عَلَى رَأْسِ أَوْفَى ذِمَّةً مِنْهُ تَطْلُعُ[٦]

(١) إعظامي: تكبيري. التاع: احترق. المفجّع: المتألّم. للوهلة الأولى انتشى في كيانه فرح سرعان ما تبخّر لتنبهه من غفوته، فإذا بقلبه يُعاوده الألم والحسرات، وقد اختفى الطيف.

(٢) أتجرّع: أشرب رغماً عني لشدّة مرارة ما أشرب. يستغرب الشاعر لليل طال والألم يأكل كبده، حتى إن سمّ الحيات يبدو ذا مذاق عذب لفراق حبيبته.

(٣) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٨٢. النوى: البعد. يُخاطب الشاعر نفسه متمنياً أن تذلّ وتخضع لإرادة حبيبته في كلّ حال، في القرب والبعد، والعاشق الصادق في حبّه من طبعه الاستسلام لإرادة محبوبه.

(٤) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢: ٢٢٣، مغني اللبيب لابن هشام وشرح شواهده، للسيوطي: ٢٣٧. اللؤم: خساسة الطبع. يتخلّص الشاعر من موضوع الغزل إلى موضوع المدح؛ فابن أحمد ذو مجد لا يُشوّهه لؤم طبع.

(٥) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ٢١٧. حابى: منح. جديلة: فرع الممدوح من طيّئ. من فضل اللّه تعالى على قبيلة جديلة أن جعل ممدوح الشاعر وهّاباً كريماً يُعطي من شاء ويمنع من أراد.

(٦) يمدح الشاعر ممدوحه بأنه كريم. فهو أفضل من أشرقت الشمس عليه في كلّ يوم، وهو يمتاز بصدق القول والعمل والوفاء، فذمّته لا يعتورها أدنى شكّ.

فَـأَرْحَـامُ شِـعْـرٍ يَـتَّـصِـلْـنَ لَـدُنَّـهُ
وَأَرْحَـامُ مَـالٍ لَا تَـنِـي تَـتَـقَـطَّـعُ[١]
فَـتًـى أَلْـفُ جُـزْءٍ رَأْيُـهُ فِـي زَمَـانِـهِ
أَقَـلُّ جُـزَيْءٍ بَـعْـضُـهُ الـرَّأْيُ أَجْـمَـعُ[٢]
غَـمَـامٌ عَـلَـيْـنَـا مُـمْـطِـرٌ لَـيْـسَ يُـقْـشِـعُ
وَلَا الْـبَـرْقُ فِـيـهِ خُـلَّـبـاً حِـيـنَ يَـلْـمَـعُ[٣]
إِذَا عَـرَضَـتْ حَـاجٌ إِلَـيْـهِ فَـنَـفْـسُـهُ
إِلَـى نَـفْـسِـهِ فِـيـهَـا شَـفِـيـعٌ مُـشَـفَّـعُ[٤]
خَـبَـتْ نـارُ حَـرْبٍ لَـمْ تَـهِـجْـهَـا بَـنـانُـهُ
وَأَسْـمَـرُ عُـرْيَـانٌ مِـنَ الْـقِـشْـرِ أَصْـلَـعُ[٥]

---

(١) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ٢٢٠. والدليل على كثرة كرم الممدوح توالي عطاياه دون انقطاع، وهباته توزّع بين ممدوحيه الذين يُشيدون به، فكأن أرحامها تتقاطع.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٢. عاب القاضي الجرجاني قول المتنبي: هذا، يروى «وما قلّ جزء» بدلاً من «أقلّ جُزيء». اجتمعت للممدوح الفتوّة والتفوّق؛ فرأيه اجتمعت لديه قُدرات ألف جزء، وأقلّ جزء من تلك الأجزاء تامّ تكتمل لديه قوّة رجاحة عقل مدبّر ناضج.

(٣) غمام: سُحُب مفعمة بالمطر. يقشع: يتفرّق. البرق الخلب: البرق الخادع الذي يذهب بالأبصار ولا ماء فيه. إن الممدوح كريم جدًّا، وهو بمثابة غمام يعمّ فيضه المادحين باستمرار، ولا ينقطع، وهو يعد ويفي فليس برقاً يخطف الأبصار ولا يُرجى منه نفع.

(٤) حاج، الواحدة حاجة. المشفّع: هو من لا تردّ شفاعته. ومن شدّة كرم الممدوح فإنه يعمل على مساعدة ذوي الحاجات، فإذا طلبوا مساعدته وجدوا فيه المسعف؛ فإن نفسه شفيع له تشجّعه على الإسهام في مساعدة الآخرين.

(٥) خبت النار: خمدت. البنان: الأصابع. يقصد بأسمر: قلماً أسمر. إن الممدوح صاحب قرار الحرب والسلم، فكلّ حرب لا رأي له فيها ستخمد نارها، فبيده القدرة على إشعال نار حرب لا يهدأ أوارها لعزمه وقوّة بطشه.

نَـحِـيـفُ الـشَّـوَى يَـعْـدُو عَـلَـى أُمِّ رَأْسِـهِ
وَيَـحْـفَـى فَـيَـقْـوَى عَـدْوُهُ حِـيـنَ يُـقْـطَـعُ[١]
يَـمُـجُّ ظَـلَامـاً فـي نَـهَـارٍ لِـسَـانُـهُ
وَيُـفْـهِـمُ عَـمَّـنْ قَـالَ مَـا لَـيْـسَ يَـسْـمَـعُ[٢]
ذُبَـابُ حُـسَـامٍ مِـنْـهُ أَنْـجَـى ضَـرِيـبَـةً
وَأَعْـصَـى لِـمَـوْلَاهُ وَذَا مِـنْـهُ أَطْـوَعُ[٣]
فَـصِـيـحٌ مَـتَـى يَـنْـطِـقْ تَـجِـدْ كـلَّ لَـفْـظَـةٍ
أُصُـولَ الْـبَـرَاعَـاتِ الَّـتِـي تَـتَـفَـرَّعُ[٤]
بِـكَـفٍّ جَـوَادٍ لَـوْ حَـكَـتْـهَـا سَـحَـابَـةٌ
لـمَـا فَـاتَـهَـا فـي الـشَّـرْقِ وَالْـغَـرْبِ مَـوْضِـعُ[٥]
وَلَـيْـسَ كَـبَـحْـرِ الـمَـاءِ يَـشْـتَـقُّ قَـعْـرَهُ
إِلـى حَـيْـثُ يَـفْـنَـى الـمَـاءُ حُـوتٌ وَضِـفْـدَعُ[٦]

(١) الشوى: الأطراف، من رأس ويدين ورجلين. نحيف: دقيق. يعدو: يركض. أم رأسه: أعلاه. يصف الشاعر القلم بيد ممدوحه، إنه دقيق الأطراف، وهو يُسرع على رأسه، وإذا قُطّ يحسن خطّه ويبدو جماله.

(٢) و (٣) يمجّ: يقذف. يقصد بالظلام: المداد. بالنهار: القرطاس. باللسان: رأس القلم. والقلم ناطق بلسان صاحبه يُعبّر عن فكره دون سماعه منه شيئاً، والشاعر يُجري مقارنة بين القلم والسيف، فقد ينبو السيف وينجو من وُجّهت إليه الضربة، أما من كُتب بقتله، فإنه لن ينجو من مصيره المحتوم؛ لذا فالقلم أفضل من السيف وأفعل في حالة كهذه.

(٤) يمتاز القلم بالفصاحة، فما من كلمة ينطق بها إلّا وهي فصيحة، ومنها تُستقى البلاغة.

(٥) و (٦) الجواد: الكريم. حكتها: شابهتها. يمدح الشاعر ممدوحه بإجادة الخطّ، فالقلم بيده يجري بيد كريم، مغدق النعم، فلو كانت السحابة مثل كفّه لعمّت المشرق والمغرب. وهو ليس كحوت الماء أو الضفدع يغوص، فيبلغ قعر البحر، وإنما هو بحر بعيد المدى والغور، وجوده لا ينقطع.

أَبَحْرٌ يَضُرُّ الْمُعْتَفِينَ وَطَعْمُهُ
زُعَاقٌ كَبَحْرٍ لَا يَضُرُّ وَيَنْفَعُ(١)
يَتِيهُ الدَّقِيقُ الْفِكْرِ فِي بُعْدِ غَوْرِهِ
وَيَغْرَقُ فِي تَيَّارِهِ وَهْوَ مِصْقَعُ(٢)
أَلَا أَيُّهَا الْقَيْلُ الْمُقِيمُ بِمَنْبِجٍ
وَهِمَّتُهُ فَوْقَ السِّمَاكَيْنِ تُوضَعُ(٣)
أَلَيْسَ عَجِيباً أَنَّ وَصْفَكَ مُعْجِزٌ
وَأَنَّ ظُنُونِي فِي مَعَالِيكَ تَظْلَعُ(٤)
وَأَنَّكَ فِي ثَوْبٍ وَصَدْرُكَ فِيكُمَا
عَلَى أَنَّهُ مِنْ سَاحَةِ ٱلأَرْضِ أَوْسَعُ(٥)
وَقَلْبُكَ فِي الدُّنْيَا وَلَوْ دَخَلَتْ بِنَا
وبِالْجِنِّ فِيهِ مَا دَرَتْ كَيْفَ تَرْجِعُ(٦)

(١) المعتفين: المحتاجين. زُعاق: شديد الملوحة. يستفهم الشاعر منكراً على بحر يُودي بمن طلب فيه الرزق إلى الهلاك، وطعمه شديد الملوحة وبين كريم يُرفد الوافدين عليه بالنعم ولا يأتيهم منه ضرر.

(٢) الدقيق الفكر: الذكي اللمّاح. الغور: القعر. المصقع: البليغ. يُقارن الشاعر بين ممدوحه وبين من يتّسم بشدّة ذكائه ووفور علمه، فإذا ما التقى بممدوحه انكشف له قصوره وقلّة ما يمتاز به ممدوحه، فهو بحر عميق الغور يفيض علماً ومعرفة وذكاءً، فيضيع في غمراته.

(٣) القيل: الملك. منبج: إحدى مدن بلاد الشام. السماكين: النجمين، وهما: السماك الرامح والسماك الأعزل. يُخاطب الشاعر ممدوحه؛ إنه ملك في منبج، طموح يسمو إلى العلاء حتى طالت يداه السماكين بهمته.

(٤) تظلع: تعرج. يُقرّ الشاعر بعجزه عن إيفاء ممدوحه حقّه من إسباغ مدحه رغم ما يمتاز به شعره من الإعجاز وحسن ظنونه بمزاياه المتعدّدة التي لا حصر لها.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩١. ومن المستغرب أن صدر الممدوح يتّسع له ثوبه وهو يستوعب الأرض كلّها؛ فتلك معجزة رغم ضيق الثوب وسعة رحابة صدره.

(٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩١. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه ذو =

أَلَا كُـلُّ سَـمْـحٍ غَـيْـرَكَ الْـيَـوْمَ بـاطِـلٌ
وَكُـلُّ مَـديـحٍ فـي سِـوَاكَ مُـضَـيَّـعُ (١)

رحل العزاء برحلتي

وقال في صباه ارتجالاً على لسان رجل سأله ذلك:

[الكامل]

شَـوْقِـي إِلَـيْـكَ نَـفَـى لَـذِيـذَ هُـجُـوعِـي
فَـارَقْـتَـنِـي فَـأَقَـامَ بَـيْـنَ ضُـلُـوعِـي (٢)
أَوَ مَـا وَجَـدْتُـمْ فـي الـصَّـرَاةِ مُـلـوحَـةً
مِـمَّـا أُرَقْـرِقُ فـي الْـفُـرَاتِ دُمُـوعِـي (٣)
مَـا زِلْـتُ أَحْـذَرُ مِـنْ وَدَاعِـكَ جَـاهِـداً
حَـتَّـى أَغْـتَـدَى أَسَـفِـي عَـلَـى الـتَّـوْدِيـعِ (٤)
رَحَـلَ الْـعَـزَاءُ بِـرِحْـلَـتِـي فَـكَـأَنَّـمَـا
أَتْـبَـعْـتُـهُ الأَنْـفَـاسَ لـلـتَّـشْـيِـيـعِ (٥)

= قلب كبير يستوعب الكون بما يحتويه من بشر وجنّ، فإذا ما حلّ ساكنوه فيه، فإنهم يتيهون فلا يُمكنهم الخروج منه لعظم اتّساعه.

(١) سمح: كريم. يختم الشاعر مدحه بأن جعل الكرماء لا قيمة لهم إذا ما قورنوا بممدوحه، وكذلك فمدحه هؤلاء مضيعة وقت، فهم لا يستحقّون ما يستحقّه من مدح.

(٢) هجوعي: نومي. لقد حلّ شوقه إلى صديقه بين ضلوعه بعدما فارقه النوم.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٣. الصراة: نهر يأخذ من الفرات، فينسكب في دجلة. رقرق الماء: صبّه. يُخاطب الشاعر صاحبه متسائلاً عن سرّ ملوحة نهر الصراة، لقد خالطته تلك الملوحة بسبب ما أراق من دموع الشوق.

(٤) لطالما سعى الشاعر على ألّا يودّعه مخافة فراقه، فانقلب أسف الشاعر على الوداع لما يصحبه من ألم الفراق.

(٥) ورد البيت في: الوساطة: ١٤٣، أسرار البلاغة، للجرجاني: ٢٧٦. العزاء: الصبر. لقد رحل الصبر عن الشاعر بارتحاله عن صحبه، وأنفاسه تتصاعد حرّى منه، فصار العزاء وتنفس الصعداء كأنهما نزيلان ورفيقان حلّا بساحته، فلما رحل ذاك كان حقّ هذا أن يُشيّعه قضاءً لحقّ الصحبة.